التاريخ بين الرواية الشفهية والوثيقة التاريخية *

د. رأفت عبد الحميد

مصر

"قال الراوى .. يا سادة يا كرام "

عبارة تبتدىء بها كل سيرة وصلت إلى أيدينا من السير الشعبية المعروفة، "سيرة عنترة بن شداد" و "سيرة الملك سيف بن ذى يزن ملك اليمن"، و "سيرة حمزة العرب الأمير حمزة البهلوان" ؛ و "السيرة الهلالية" أو قصة "الزير سالم أبو ليلى المهلهل" و "تغريبة بنى هلال" و "سيرة الأميرة ذات الهمة" و "سيرة الظاهر بيبرس" وغير ذلك، على حين تستفتح شهر زاد كل ليلة من لياليها عند حكيها لحكاية جديدة أو استمرارها في واحدة كانت قد بدأتها بالفعل من قبل، بقولها الشهير "بلغنى أيها الملك السعيد" وكلمة "بلغنى" هى شكل آخر من أشكال "قال الراوى" فالدلالة واحدة.

وقد ينص أحياناً في بداية السيرة على اسم واحد من هؤلاء الرواة، قد يكون أخرهم، وقد لا يأتى ذكر لأحد منهم على الإطلاق، ففى "سيرة الملك سيف ملك اليمن"، نجد مثالاً لذلك حين يقال: "قال الراوى أبو المعالى روى سيرة أبى الأمصار وسائل النيل من أرض الحبشة إلى هذه الديار"،[1] مع العلم أن "أبا المعالى" لقب للراوى وليست اسما لعلم، بينما يأتى الاسم منسباً في سيرة "الظاهر بيبرس" عندما نصادف في أولها عبارة "قال الراوى وهو الدينارى رحمه الله تعالى"،[2] على حين تنفرد "سيرة الأميرة ذات الهمة" بإيراد أسماء عشرة من الرواة تقدمهم على هذا النحو: "..وإن من روى هذه السيرة العجيبة، وما فيها من الأحاديث المطرفة الغريبة، هو على بن موسى المقانبى، وابن بكر المازنى، وصالح الجعفرى، ويزيد بن عمار المزنى، وعبد الله بن وهب اليمانى، وعوف بن فهد الفرازى، وسعد بن مالك التميمى، وأحمد الشمشاطى، وصابر المرعشى، ونجد بن هشام العامرى، قالوا جميعاً والله أعلم...".[3]

وتفصح هذه السير، أو أن شئت الدقة فقل هذه الروايات الشفوية المتواترة في مجموعها، عن الهدف الأساسى من وضعها، وهى كلها تتفق عليه وإن اختلفت عباراتها، مثل "... وهذه قصة غريبة الوجود، والمستعان بالله تعالى الواحد المعبود، الذى جعل سير الأولين عبرة للقوم الآخرين، وأخبار الأمم الماضين (هكذا) اعتباراً للباقين".[4] أو "... أن سير الأولين صارت عبرة للآخرين لكى يرى الإنسان العبر التى حصلت لغيره فيعتبر، ويطالع حديث الأمم

---

* قام د. طارق منصور بإعداد ونشر هذه الورقة لسيادته بعد وفاته، إجلالا وتكريما له –رحمه الله.

[1] سيرة فارسى اليمن الملك سيف بن ذى يزن، بيروت ١٩٨٥، جـ١، ص٣.

[2] سيرة الظاهر بيبرس، القاهرة ١٩٩٦، المجلد الأول، ص١١.

[3] سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب، بيروت ١٩٨١، المجلد الأول ص٥.

[4] سيرة فارس اليمن الملك سيف بن ذى يون، بيروت ١٩٨٥، جـ١ ص٣.

السابقة وما جرى لهم فينزجر (هكذا)، فسبحان من جعل حديث الأولين عبرة لقوم آخرين...".[٥] أو "... ان الله سبحانه وتعالى جعل سير الأولين عبرة للآخرين، وموعظة للجاهلين، وتنبيهاً للغافلين، يتعظم بها أصحاب العقول الكاملين".[٦]

ولا أظن أن هذا الهدف الذى تسعى إليه الرواية الشفهية التى تصبح بمقتضى التقادم موروثاً شعبياً، يبعد كثيراً عن الهدف الذى تضعه الدراسات التاريخية نصب أعينها، وإن اختلفت الفكر والمضامين والمصادر، ولننظر مثلاً إلى ذلك العمل التاريخى الرائع الذى وضعه المؤرخ الأشهر تقى الدين المقريزى تحت عنوان "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، وهى دراسة إطارها المحيط هو التاريخ، ولكنها في جوهرها تضم عدداً من ميادين الدراسات الإنسانية المختلفة، كالجغرافيا والاجتماع والاقتصاد والعمارة والفنون والآداب والتخطيط، أو بعبارة أخرى ننقلها عن أستاذنا محمد عبد الله عنان[٧] متمثلة في قوله: "... فهذا الأثر فوق كونه عرضا مستفيضاً لجغرافية مصر والقاهرة والنيل القديمة، وسيرها منذ الفتح الإسلامى، هو مجمع فريد من صور العمرانية والاجتماعية والفنية في العصور الوسطى، ومعرض بديع لتاريخ مصر الاجتماعى، وأحوال المجتمع المصرى، وظواهره النفسية والأخلاقية، وحياته العامة.. وهذا التراث العمرانى والفنى الخالد، تراث المدينة الإسلامية في مصر، يعرضه لنا المقريزى في صور قوية باهرة ممتعة، وهو يتتبع فيما يكتب شجون الحديث. فإذا ملك أو أمير كبير يقترن اسمه بذكر هذه الصروح والآثار الخالدة أو تلك، وإذا حادث أو واقعة أو نادرة ترتبط بسيرتها، فإنه يستقصى كل ما يتعلق به أو بها من الأخبار، فينتقل بقارئه من المسجد والقصر إلى الأمير، ومن الأمير إلى الحرب، ومن هذه إلى المآدب والرياض، وهو خلال ذلك كله يعنى بعرض صور هامة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى والاقتصادى والفكرى، ويقدم إلينا المجتمع القاهرى في أثوابه المختلفة ذاهية وقائمة، ويعنى بشرح النظم السياسية والادارية والاقتصادية التى توالت على مصر، ورسوم البلاط القاهرى في عصوره المختلفة، وأحوال الخلفاء والسلاطين في الحياة العامة والخاصة، ومواكبهم ومآدبهم وأخلاقهم وأطوارهم، وأحوال المنشآت العامة كالثكنات والسجون والمعاهد والمدارس والمساجد والزوايا والنكايا وغيرها، وحياة الشعب الخاصة، وعادات الأفراد وتقاليدهم وأحوالهم في المعاملات والملبس والمآكل والأفراح والأتراح والجد والهزل".

هذه المساحة المعرفية الواسعة المتعددة الجوانب، عنونها المقريزى بـ "المواعظ والاعتبار"، ومن ثم فليس هناك اختلاف في الهدف – كما أشرنا منذ قليل – بين الدراسات التاريخية الوثائقية والروايات الشفهية أو الموروث الشعبى، والمقريزى نفسه يعبر عن ذلك بقلمه الخاص حين يقول: "علم التاريخ من أجل العلوم قدراً، وأشرفها عند العقلاء مكانه وخطراً، لما

---

[٥] ألف ليلة وليلة، بيروت بدون تاريخ، جـ١ ص٥.

[٦] سيرة الظاهر بيبرس، القاهرة ١٩٩٦، المجلد الأول ص١٠.

[٧] مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة ١٩٣ذ، ص٥٠ – ٥١.

يحويه من المواعظ، والإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذا الدار، والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها، واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى، لا جرم إن كانت الأنفس الفاضلة به رامقة، والهمم العالية إليه مائلة وله عاشقة".[٨] وهذه العبارات التى أوردها المقريزى لا تبتعد كثيراً عما أورثه السير الشعبية التى تعد النموذج الحى المتجسد للرواية الشفهية، عن الهدف المبتغى من وراء سردها أو قصها على مسامع العامة.

غير أن هذا لا ينجو بنا بعيداً عن الجانب الوثائقى في الدراسات التاريخية، وهو عصبها، فكما أسلفنا من القول إن "الراوى" يبتدىء روايته بالقول عمن أخذ: "قال الراوى"، فإن المؤرخ يدعم دراسته وتاريخه بقوله "تحدثنا الوثيقة" أو "تخبرنا المصادر"، والباحث المدقق يفتتح مطالعته لأى كتاب في التاريخ، بالصفحات الأخيرة من الكتاب، بحثاً عن المصادر والوثائق التاريخية التى اعتمد عليها المؤلف في كتابه، وتحدد القيمة العلمية تبعاً لمدى اصالة تلك الوثائق والمصادر، ومن البديهى أن أى باحث أو مؤرخ لا يمكن مطلقاً أن يقف فوق جسر الصدق ما لم تكن الوثيقة مصدر بحثه وركيزة دراسته، شريطة أن تكون الوثيقة نفسها صادقة لم تمسسها يد التزييف، تلك قضية أخرى.

وقد وقف مؤرخنا الأشهر "ابن خلدون" على هذه الناحية وحدثنا عنها بكل الدقة عندما كتب في "مقدمته" يقول: "... والتاريخ في باطنه نظراً وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأمم وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس في الباطل وهموا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقرها ووضعوها.[٩]

وابن خلدون هنا كما هو ظاهر في عبارته، يفصل بين المؤرخ بكل ما تعنيه الكلمة في منزلة القضاء.. وكاتب التاريخ المتطفل على كتابته بكل ما تفصله كلماته من بعد عن الانتقاء.

ولنكمل حديث ابن خلدون لنرى إلى حد بعيد البعد عن الوثيقة في الدراسة التاريخية ضرباً من العبث، والعبث نفسه في عدم تمحيص كل ما يكتب، والتغاضى عن الدقة في كل ما يقال ويدون، وتلك آفة نفر ليس بالقليل ممن يتصدون لكتابة التاريخ، ومن ثم فإنه يمكننا القول قياسا على شهادة العلامة ابن خلدون، "كثيرون يكتبون التاريخ، وقليل منهم المؤرخون"، فالمؤرخ بالدرجة الأول قاض وليس قاصاً ولا مجرد ناقل، يقول العلامة مكملاً حديثه الذى توقفنا عنده منذ قليل: "... واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا نزهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض طويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل،

---

[٨] المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة بدون تاريخ، الجزء الأول ، ص٢.

[٩] ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة، بيروت بدون تاريخ، ص٤.

والحق لا يقاوم سلطانه، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه، والناقل إنما هو يملى وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل، والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل".[١٠]

واضح تماماً أن ابن خلدون يقف موقفاً جاداً من أولئك الذين يكتبون التاريخ بأيديهم ويقولون إنما قال بهذا الأسلاف، ونحن على آثارهم مقتدون، دون تمحيص وتدقيق، ومناقشة، وتحليل، ونقد بعد كل ذلك عميق وأصيل. هؤلاء النفر لا يعدون من المؤرخين وإن حسبوا أنفسهم كذلك وإن عدهم أناس هكذا.

والذي يلفت النظر ويدل على فراسة العرب وسبقهم في العديد من ميادين المعرفة الإنسانية، أن ابن خلدون فصل في صدر مقدمته بين الرواية والتاريخ، أو بتعبير أكثر دقة بين التاريخ المروى أو الرواية الشفهية والتاريخ الوثائقى، وميدان هذا وذاك، وما يحتاجه عامة الناس والجمهور، وما يسعى إليه خاصة الدارسين وأعيانهم، وهذا بيت القصيد في بحثنا هذا، يقول: "... فن التاريخ من الفنون التى تتداوله الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأفيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيه الأقوال، وتضرب فيه الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدى لنا شأن الخليفة كيف تقلب بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفى باطنه ...".[١١]

وهذه العبارات الأخيرة تنصرف دون مناقشة إلى الرواية الشفهية أو التاريخ المروى، الذى تنمو فيه الأقوال "بزيادة الروايات جيلاً بعد جيل، يضيف إليها راو بعد راو، ومحدث بعد آخر، ويتفنن كل منهم في إضافة قصة على هامش الرواية، أو طرفة لطيفة، أو مثل جرت به الألسنة مع الزمان، ويضيف إليها من عندياته ما يشوق السامعين، وتلك براعة في فن الإلقاء، وهذا ما يشير إليه ابن خلدون بقوله "وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال"، حيث يتحلق الناس حول هذا الراوى أو ذاك في إصغاء عجيب.

وإذا كنا قد فصلنا بحزم بين من يكتبون التاريخ والمؤرخين، وأكدنا على أن المؤرخ هو الذى يضع الوثيقة نصب عينيه، مخضعاً إياها للتحليل والمناقشة والمقارنة والتمحيص والنقد، فإن هذا يدفعنا مباشرة إلى إثارة هذا السؤال الجوهرى.. أين موضع الرواية الشفهية من الكتابة التاريخية؟

لا يستطيع أحد أن ينكر أن التاريخ كان في أصل نشأته روايات شفهية جرت بها ألسنة الناس، أو تناقلها الرواة جيلاً بعد جيل، وتمثلت عند العرب في أشعارهم، حتى عد الشعر ديوان العرب، فسجلوا بالقريض أفراحهم وأتراحهم، ومجالس سمرهم، وحلهم وترحالهم، وأيامهم في

---

[١٠] ابن خلدون، المقدمة، ص٤.

[١١] المصدر نفسه، ص ٣- ٤.

الجاهلية والإسلام، وساعدت ملكة الحفظ لديهم في نقل هذا التاريخ والاحتفاظ به لفترة زمنية طويلة، والعرب هنا لم يبتعدوا عن الأصل التاريخى لكلمة Istoria اليونانية، والتى كان يقصد منها في بلد الإغريق قديماً البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة، وهى معرفة البلاد والعادات والمؤسسات السياسية المعاصرة أو الماضية، ثم تطورت الكلمة لتضم إلى ذلك معرفة الأحداث التى رافقت نمو هذه الظواهر.[١٢]

ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن هذه المفاهيم لم تكن واردة في أول الأمر، بالمعنى الذى نقصده، لدى هؤلاء الشعراء العرب الذين تركوا شعرهم ودونوا فيه تلك الأحداث التى عايشوها أو حدثوا عنها فيما بعد تمجيداً وافتخاراً، "فأيام العرب؛ ترجع في أصلها إلى الأدب أكثر مما ترجع إلى التاريخ، فقد كانت تروى بالدرجة الأولى لإيناس السامعين ولإمناعهم، حقا لقد كانت تحتوى على عناصر تاريخية من حيث أنها سجلت أحداث كبرى (كحرب البسوس، وداحس الغبراء، وغير ذلك)، ومن حيث أنها اعتبرت مثل تلك الأحداث متصلة بنواح معنوية معينة،[١٣] وقد لعبت فنون وأشكال هذه "الأيام" و"القصائد" التى خلدتها،دوراً هاماً في تشكيل علم التاريخ عند المسلمين.

فمن الأمور التى لا يتطرق إليها الشك أن التاريخ الإسلامى نشأ في أول أمره معتمداً اعتماداً كاملاً على الرواية الشفهية، حتى عرف المشتغلون به بادىء ذى بدء بالرواة أو الإخباريين، ولم يكن هناك آنذاك ما ينتقص من قدر هذه الرواية لأن ملكة الحفظ العربية كانت لها السيادة على الكتابة أو التدوين إبان العصور الجاهلية وصدر الإسلام، وإن نظرة سريعة إلى كتب السيرة النبوية والمغازى نجدها كلها تورد أخبارها بقول مؤلفها: حدثنا فلان عن فلان، وحول هذا يقول الأستاذ أحمد أمين[١٤] "... لو تتبعت في ابن جرير الطبرى سلسلة رواياته وجدت أن الرواة الثالثة أو الأربعة الذين يتصلون به وبحياته كانوا في العصر العباسى، وهؤلاء يروون عمن قبلهم ممن كانوا في عهد الأمويين أو الخلفاء الراشدين، نعنى بذلك أن الحوادث التى دونت كانت معروفة في العصر الذى يؤرخ له،وابن اسحق وأمثاله إنما دووا ما كان معروفاً وجمعوه".

من هنا كان أول ما دون في التاريخ الإسلامى – بطبيعة الحال – يعتمد على الذاكرة الإنسانية، أو بتعبير آخر، الرواية الشفهية، ولعل من يقرأ ما دون من الذاكرة يتجلى له أن أغلب التاريخ العربى الإسلامى الأول مستمد من السمع والمشاهدة، ومن ثم جاء تدوين المؤرخين الأوائل لما استوعبته الذاكرة بالنقل من فلان عن فلان من الحفاظ الموثوق بهم، وهو ما عرف بـ "الإسناد" بمعنى دفع الخبر إلى قائله، وهكذا كان الحفاظ هم الوسطاء بين الخبر والمؤرخ.[١٥]

---

[١٢] روزنتال (ف) ، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلى، بيروت ١٩٨٣ ص١٦.

[١٣] المرجع السابق، ص٣٢.

[١٤] فجر الإسلام، القاهرة ١٩٦١ ص١٥٦.

[١٥] عبد المنعم ماجد، الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٣ ص٢٠٣ – ٢٠٤.

وهذه السلسلة الطويلة من "العنعنة" التى نشهدها مثلاً عند ابن هشام في السيرة النبوية، والواقدى في المغازى، والطبرى في تاريخ الرسل والملوك، تؤكدا أمرين أساسيين على قدر كبير من الأهمية، أولهما: الدور الكبير الذى لعبته الرواية الشفهية في تدوين التاريخ الإسلامى خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة على الأقل، والثانى: دور الرواة أو الحفاظ على هذه الروايات ونقلها جيلاً بعد جيل، مع محاولة التيقن الكامل من عدم انقطاع ثبت السند أو العنعنة حتى لا تمسى الرواية ضعيفة الإسناد فلا يؤخذ بها.

لا غرو إذن أن ينشأ علم التاريخ عند المسلمين في أحضان علم الحديث، لأن هذه الطريقة عينها هى التى اتبعت في جمع الأحاديث النبوية، ولما كان تحرى الدقة والأمانة حتماً مقضياً عند جمع هذه الأحاديث، فقد انسحب ذلك بالتالى على الروايات الشفهية التى تتصل بحياة الرسول وصحبه مكونة سيرته ومغازيه صلى الله عليه وسلم، ولما كان المسلمون حريصين في الناحيتين على التزام جادة الصدق والضبط في جمع مادتى الحديث والسيرة، فقد أصبح منهاج "الجرح والتعديل" ميزان الحقيقة في كل من هذه وتلك، وابن خلدون يشير إلى مثل هذه الناحية ويؤكد على ضرورة "البحث والروية" والبعد عن "الغفلة وضعف النظر"[١٦] ويشاركه في هذا الرأى "السخاوى".[١٧]

وقد حرص كثير من الخلفاء المسلمين على أن يكون إلى جوارهم دوماً من "يقص " عليهم أو "يروى" لهم أخبار الأمم السالفة التى سبقت الدعوة الإسلامية، وشيئاً عن أحوال ملوكهم وسادتهم، حتى أن الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان، كان كما يحدث عنه المسعودى "يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها، وسياستها لرهيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة... ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر من يواصل له الروايات الخاصة بسير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فتمر بسنعة كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات".

نحن هنا إذن أمام كم هائل من الروايات الشفهية تناقلها حفاظ العرب أمة بعد أمة، شعرا كان أو نثراً، وإن كان الشعر هو الغالب لسهولة حفظه، وقد وجد المؤرخون المسلمون الأوائل أمامهم كل هذه الروايات الشفهية فجمعوها، وزاد الأمر كثرة دخول الشعوب المختلفة ذات التاريخ في الإسلام مثل الفرس وجماعات من الروم والمصريين ونفر من بنى يهود، وهؤلاء جميعاً رووا تواريخهم، وحدثوا المسلمين بها وبتاريخ الأمم الأخرى، ويكفى نظرة واحدة إلى تاريخ الأمم والملوك للأمام الطبرى، وقد قدمته هنا بلفظ "الأمام"لأن الرجل كان مفسراً ومؤرخاً، وهذا ما أسلفنا عنه الحديث منذ قليل عند القول بأن المؤرخين المسلمين الأوائل كانوا رواة ومحدثين

---

[١٦] ابن خلدون، المقدمة، ص٣١.

[١٧] السخاوى، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق فرانز روزنشال، ترجمة/ صالح أحمد العلى، بيروت بدون تاريخ، ص٩٢ – ٩٣.

أو مفسرين، نقول إن نظرة واحدة إلى تاريخ الطبرى تكفى للوقوف على هذا الكم الهائل من الروايات الشفهية التى يوردها هؤلاء المؤرخون الأوائل بعد أن سمعوها وجمعوها، وهو حريص في الوقت ذاته على أن يرويها بسندها، فنراه يذكر مثلاً "... حدثنى ابن أبى سعيد عن عبد الله بن سلام أنه قال: "أو" أو "حدثنا شعيب عن سيف عن الربيع وأبى المجالد وأبى عثمان وأبى حارثة، قالوا:" وهكذا.

ورغم أن ابن خلدون يهاجم في مقدمته نفراً من المؤرخين الأوائل ويذكرهم بأسمائهم، لاعتمادهم على مجرد النقل لما سمعوا أو رأوا وتدوينهم لذلك دون تمحيص، إلا أن هذا لا يلغى مطلقاً الأهمية الكبيرة التى كانت عليها هذه الروايات الشفهية الذائعة والمنتشرة وفى الوقت نفسه المحفوظة شعرا بصفة خاصة أو نثراً، في كتابه التاريخ الإسلامى في أول الأمر. غير أن المسلمين لم يقفوا بتواريخهم عند هذه المرحلة، بل تجاوزوها بمراحل متعددة، ودخل التاريخ من بعد عندهم في مجال العلوم، بل اعتبروه – على حد قول السخاوى – من أحسن العلوم واشهدها، نذر السخاوى نفسه للدفاع عنه وذم من ذمه، وتبيان أهميته وأبعاده وأهدافه، في كتابه الذائع "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ"، وافرد له بن خلدون الصفحات الطوال في مقدمته الرائعة.

وتشكل الرواية الشفهية الركيزة الأساسية في الموروث الشعبى الذى يحكى مسيرة الشعوب نفسها، وطموحاتها وآلامها، ونبض الحياة الاجتماعية بكل جوانبها، والحياة الاقتصادية من حيث ممارسة الناس لها وتعايشهم في كنفها، بعيداً عن سيرة الحاكم سلطانه، ومن هذا المنطلق يلتف الموروث الشعبى حول جوهره، ويشكل الاثنان معاً – كما حدث في كثير من الأزمان وعند كثير من الشعوب، الأسطورة وهى التى خرج من رحمها التاريخ منذ البداية. وفى العصور الوسطى بصفة خاصة في الشرق الاسلامى أو الغرب المسيحى على السواء، يجد المؤرخ نفسه مدفوعا إلى الاعتماد أحياناً على بعض هذه الروايات أو الموروث الشعبى أو الأسطورة، ليكمل بأى منها ما نقص في المصادر أو الوثيقة التاريخية. ومن ثم فليس غريباً القول إن الرواية الشفهية تعد ضرورة أحياناً لتفسير ما غمض أو صعب فهمه في بعض جوانب الوثيقة التاريخية.

والموروثات الشعبية تحمل رؤية الشعب لتاريخه وتفسيره لمسيرته الحضارية، كما تشى بكل ما كان يحركه من قيم أو مثل عليا والنظام الأخلاقى الذى حكم حركته في الزمان والمكان.

والموروثات الشعبية تتضمن الأسطورة، السيرة الشعبية، والحكايات والألغاز، والأمثال والأغانى والنكات، وغيرها مما يعبر به الناس عن أنفسهم بشكل تلقائى.

ولعل الفرق الجوهرى بين التسجيل الرسمى للتاريخ والتسجيل الشعبى هو أن الأول قصد به أن يكون تاريخاً، أى أنه مقصود أن يصل للأجيال التالية على النحو الذى تمت به كتابته، أما التسجيل الشعبى فهو تسجيل شفاهى تراثى تتناقله الأجيال وتزيد عليه، وتعدل في

مضمونه بما يخدم أهداف الجماعة الإنسانية، دون أن يقصد به أن يكون تاريخاً يقرأه الناس في الأجيال التالية، ذلك أن الموروثات الشعبية تعبير تلقائى عن الناس في حياتهم اليومية، وعن رأيهم في أحداث تاريخهم ورؤيتهم له، وإذا كنا نستطيع من خلال المصادر التاريخية التقليدية، أن نستعيد صورة الحدث التاريخى من ذمة الماضى، فإن هذه الصورة تظل باهتة لا حياة فيها ما لم نفهم أهل العصر الذى ندرسه من خلال عاطفتهم ووجدانهم وقيمهم الأخلاقية، ومثلهم العليا التى حركتهم آنذاك، والموروثات الشعبية مصدر هام للمؤرخ الذى يدرس التاريخ الاجتماعى، أو النتاج الثقافى لأمة من الأمم.[١٨]

ولعل أروع تعبير يمكن أن يؤتى به الآن، هو ما جرى على لسان طجورج ماكولى تريفيليان" G.M.Trivilian عندما قال: "لا تتألف روح الشعر في تدوين التاريخ من خيال يطوف في الفضاء، ولكنها تتألف من خيال يقتفى أثر الحقيقة ويلتصق بها، وبالنظر على أن الحقيقة قد وقعت فعلاً فإنها تجمع حولها سر الحياة والموت والزمن الذى لا يسير غوره، فعلم المؤرخ وبحثه يجدان الحقيقة، وخياله وفنه يوضحان مدلولها.[١٩]

ويصل الائتلاف بين الرواية الشفهية والموروث الشعبى ذروته ويصبحان شيئاً واحداً في السير أو الملاحم التى أشرنا إليها في صدر بحثنا هذا، وهى خاصة بالتراث العربى، ويقابلها في أوروبا أيضاً الكثير مثلها ويسبقها بعضها أحياناً ، فالموروث الشعبى يجد ضالته في شخصية محورية تاريخية حقيقية فعلاً ،لعبت دوراً معيناً في مسيرة التاريخ الإنسانى، وتنسج حوله خيوط روايات تكون "ملحمة" شعبية، ولا يخفى على أحد أن المشاعر الشعبية تبحث عن شخصية البطل الذى ترتجيه في حاضرها ولا تجده ماثلاً بين ظهرانيها، فتستدعيه من ذاكرة التاريخ الرسمى، وتصنع منه البطل الذى تتطلع إليه ليخرج بها بقوته الحارقة وذكائه المتقد وحيله البارعة وشخصيته الجذابة، من هذا الواقع الذى تحياه، وتتلظى به، إلى آفاق أخرى تؤملها أكثر إشراقاً وسعادة.

وكان نظم الشعر كما يقول "جوردون شايلد" – من العوامل المساعدة في تذكر الأحداث حين كانت الكتابة غير مستعملة، وكان ذلك من الأسباب التى أدت إلى ظهور ملاحم البطولة والقصص الشعبية، ونمت تلك التقاليد الشعرية لازدياد تواتر الرواية المنقولة عنها، وكانت المبالغة مستحبة في الإشادة بالمفاخر والأمجاد لإثارة حواس المستمع وانتباهه، ومن الأمثلة الشائعة على ذلك ما جاء في التوارة مثل سفر القضاة مثلاً ".[٢٠]

---

[١٨] قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور، القاهرة ١٩٩٣، ص١٦ – ١٧.

[١٩] إيمرى نف، المؤرخون وروح الشعر، ترجمة توفيق اسكندر، بيروت بدون تاريخ، ص٢.

[٢٠] شايلد (ج)، التاريخ، ترجمة عدلى برسوم عبد الملك، القاهرة بدون تاريخ، ص٥٢ – ٥٣.

وأجدنى هنا ملزماً بأن القلم لـ "إيمرى نف Emery Neff.[٢١] ليلقى الضوء على ما قدمناه تواً فيقول: "إن الروايات المختلفة الكثيرة في نص الإلياذة والأوديسة التى جاءت في الشروح الهامشية القديمة، على مخطوط بالبندقية نشره العالم الفرنسى سنة ١٧٨٨، واقتباسات قدامى المؤلفين من شعر هوميروس ومنهم أفلاطون وأرسطو وفرجيل، وهى اقتباسات لم ترد في مخطوطاتنا، أقنعت "ولف" Wolf (الذى كتب تقديماً لدراسة أعمال هوميروس عام ١٧٩٥) بأن فن الكتابة لم يكن معروفاً عند الإغريق في عصر هوميروس، وأعتقد "ولف" أن هوميروس جمع معظم الملحمتين شفوياً معتمداً على القصص الأسطورى القومى، إلا أن المنشدين قد أضافوا إلى جمعه وغيروا فيه طيلة أربعة قرون تقريباً ، ونقلوه بطريق الحفظ حتى دون كتابة في أثينا في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، بل إن النص قد تناوله بعد ذلك النحويون والناشرون بالتعديل، وهذا يؤكد الحقيقة الذائعة لقائله بأن الشعب الإغريقى كان حقيقة لا مجازاً هو الشاعر العظيم هوميروس!! وقد أكد المؤرخون في جملتهم أن الملاحم الهومرية ألفت وانتقلت بطريق الرواية الشفوية، بل إن قوة الذاكرة الخارقة عند الشعوب الأمية الحديثة، أثبتت إمكان هذا النقل الشفوى واحتماله، حتى ليقال إن الشيوخ في جزر "هبريديس" يحفظون من الشعر الغالى ما يفوق الإلياذة طولاً ، وبالرغم من أن العلماء قد عجزوا حتى الآن عن الاتفاق على ما إذا كان للقصائد الهومرية مؤلف واحد أو أكثر، فإنه أصبح من الواضح أن القصائد المنسوبة إلى هوميروس أشبه بالملاحم الشعبية إلى حد كبير منها بالإنشاء المقصود الذى يقوم به شاعر واحد، كما هو الشأن في "إينيادة" "فرجيليوس". وينقل "إيمرى نف" عن "نيبور" Neibuhr قوله: "من المشكلات التى قد تستعصى على الحل إنشاء ملحمة شعرية لا تعتمد على موضوع عاش قروناً في الأغانى والقصص الشعبية باعتباره ملكاً شائعاً للأمة".[٢٢]

ويأخذ "هرنشو"[٢٣] Hearnshaw مع بحثه الرائع ليؤكد لنا هذا المعنى بقوله: "إن التاريخ من حيث هو سجل العصور الغابرة وديوانها الحافظ لأخبارها، قديم قدم اهتداء الإنسان إلى صناعة الكتابة، بل لقد كان الناس قبل ذلك العهد البعيد يتذاكرون قصة الأزمنة القديمة، ويتناقلونها ابناً عن أب على شكل روايات شفوية، وكان الغرض الذى من أجله تنحدر تلك القصة من جيل إلى جيل رواية شفوية، هو من غير نفس الغرض الذى ندري من أجله اليوم التاريخ ونكتبه" وهذا ما أشرنا غليه من قبل في صدر هذا البحث.

وتتسم الروايات الشفهية التى تكون الموروث الشعبى بالتلقائية والبساطة من ناحية، كما أنها تدور حول أمور تتعلق بثقافة المجتمع وتقاليده وعاداته وأخلاقه من ناحية أخرى، ويتم ذلك

---

[٢١] المؤرخون وروح الشعر، ص١٢١ – ١٢٢.

[٢٢] إيمرى نف، المؤرخون وروح الشعر، ص١٢٢.

[٢٣] هرنشو (ف)، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادى، القاهرة ١٩٤٤، ص١٥.

كله بأسلوب مثقل بالخيال والرموز الشعبية التى تخدم الأغراض والغابات الاجتماعية الثقافية للمجتمع،والموروث الشعبى يحمل أفكاراً ثابتة حقاً تمثل المنحى الثقافى للجماعة.